الباب الحادى والعشرون

اختيار أحسن الأمرين

[إذا التبس عليكَ أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًّا] .

قلت : هذا ميزان صحيح فى حق السائرين المشتغلين بالجهاد الأكبر :

قال تعالى : (وَجَاهِدُوا فى الله حَقَّ جِهَادِهِ)[1] وقال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[2] .

فكل ما يثقل على نفس المريد وتنفر منه فهو حق . فالواجب على المريد اتباعه ، وكل ما يخف عليها فهو باطل وفيه حظها ، فالواجب عليه اجتنابه وهذا الأمر يختلف اختلافًا كثيرًا ، فرب نفس يثقل عليها غير ما يثقل على الأخرى ، فبعضها يثقل عليها الصمت وبعضها يثقل عليها الكلام ، كما إذا تربى فى الصمت ، وبعضها يثقل عليها العزلة ، وبعضهايثقل عليها الخلطة ، وبعضها يثقل عليها الصيام ، وبعضها الفطر ، وبعضها يثقل عليها السؤال وتموت منه فى ساعة واحدة ، وبعضها يخف عليها كما إذا تعودته قبل الأمر به ، وقس على ذلك .

فليكن العبد على نفسه بصيرة ، ويصير معها على عكس مرادها ، هكذا يستمر معها يخالفها فيما تأمره ويتهمها فيما تستحسنه . فإذا تزكت وتطهرت من الحس ولم يبق فيها بقية فحينئذ يجب عليه موافقتها ، إذ لا يتجلى فيها حينئذ إلا الحق ، فقد جاء الحق وزهق الباطل ، فيصير أمر العارف معكوسًا مع السائر .

---

(١) الحج : ٧٨ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

فالسائر يضره التدبير والاختيار والعارف ينفعه ، والسائر تضره الخلطة والعارف تنفعه . السائر يضره الكلام والعارف ينفعه ، السائر تضره الدنيا ويهرب منها . والعارف غائب عنها لا تضره . وربما تنفعه .

والحاصل : أن الواصل معكوس مع السائر فى أموره كلها . وبالله التوفيق .

ويجب على من أراد جهاد نفسه أن يلقيها إلى شيخ التربية ، إذ قد يلتبس عليه أمرها وعلى فرض علمه بما ينقل عليها لا قدرة له على مجاهدتها إلا بهمة الشيخ ، هذه سنة الله فى عباده ، فإن النفس لا تريد أن تخرج عن رأيها ومرادها أبدًا ، فالواجب إسلامها إلى من يعينه عليها ، وانظر التكاليف الشرعية تجدها مخالفة لهوى النفس ، ومن لا يلقى قياده إلى الشرع فهو كافر ، وما كفر من كفر إلا بتتبع الأهواء ، والله تعالى أعلم .

ميزان اخر للعمل

وهاهنا ميزان آخر تعرف به العمل الذى فيه حظ النفس وهواها ، وما لاحظ لها فيه هو أن تعرض عليها الموت وأنت فى ذلك العمل ، فإن رضيت بالموت وهى فى ذلك العمل فالعمل صحيح ، وإن لم ترضُ بالموت وهى فى ذلك العمل فالعمل باطل ؛ فكل عمل لا يهزمه الموت فهو صحيح : وكل عمل يهزمه الموت فهو باطل ، يعنى فيه الهوى والحظ ، وكذلك الإنسان يزن نفسه بهذا الميزان ليعرف هل رحل من هذا العالم أو هو باق ، فيعرض الموت على نفسه فى حال عافية وجمال ، فإذا قبلت الموت ولم تفر منه فليعلم أنه رحل من هذا العالم ، وإن لم تقبل نفسه الموت وطلبت البقاء ففيه بقية بقدر ما تفر منها ، وبالله التوفيق .

علامة اتباع الهوى

ثم ذكر الشيخ ميزانًا آخر يعرف به اتباع الهوى من الحق فقال :

[من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات] .

قلت : هذا ميزان آخر ، وإن شئت قلت هو داخل فى الميزان الأول ، إذ من شأن النفس أن يثقل عليها الواجب لمشاركة الناس لها فيه ، إذ جلّ الناس يفعلونه ، فلا يظهر لها فيه مزية على غيرها ، وهى أبدًا تحت الخصوصية ، بخلاف النوافل فإنها تبطش إليه وتحب أن تنفرد بها ، إما لطلب المدح والثناء ، وإما لطلب الأجور من القصور والحور ، وهذا كله عند المحققين من الحظوظ الجلية أو الخفية ، فالمسارعة إلى نوافل الخيرات ، وفضائل الطاعات مع التكاسل عن الفروض الواجبات من علامة الهوى ، فيجب على الإنسان أن يقدم الفرض الواجب ، ولا يقدم عليه إلا ما هو من كماله :

كالنوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه ، فإن حصل الحضور استغنى عن الوسيلة ، والنافلة الكبرى عندنا : هو الاستغراق فى مشاهدة مولاه بين فكرة ونظرة أو ما يوصل إلى هذا المقام من مذاكرة أو ذكر ، ومن رفض الدنيا بحذافيرها وغاب عن نفسه وجنسه ، فقد جمع الفرائض والنوافل كلها ولو بات نائمًا وظل مفطرًا .

وفى بعض أخبار سيدنا داود عليه السلام قال : يارب أين أجدك ؟ فقال له : اترك نفسك وتعالى : أى غب عنها تجدنى أقرب إليك منها .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى ، وبالله التوفيق .

حكمة توقيت الطاعات

ولما كان من شأن النفس الأمارة التكاسل عن الطاعات ، قيدها الحق تعالى بأعيان الأوقات ، كما أبان ذلك بقوله :

[قيد الطاعات بأعيان الأوقات ، لئلا يمنعك عنها وجود التسويف ، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة الاختيار] .

قلت : من شأن النفس تسويف العمل وتطويل الأمل : فلو تركت مع اختيارها ما توجهت قط إلى ربها . ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا تنهضه المحبة ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة ، وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران ، أو شبكة الطمع بنعيم الجنان ، أوعد من حاد عن طاعته بالعذاب الأليم ، ووعد من أطاعه وتقرب إليه بالنعيم المقيم ، ثم فرض عليهم ما تظهر فيه طاعته من الأحكام والفرائض ، وعين لها أوقاتًا مخصوصة ، إذ لو ترك ذلك لاختيار عباده ما أقبل عليه بها إلا القليل من أهل محبته ووداده ، ومن رحمته تعالى أن وسع عليهم فى تلك الأوقات ، فبقى لهم فى ذلك ضرب من الاختبار .

فوسع الظهر مثلا إلى العصر ، والعصر إلى الاصفرار ، والمغرب إلى العشاء ، والعشاء إلى نصف الليل ، والصبح إلى قرب الطلوع ، فقد قيد لك أيها العبد الطاعات التى أوجبها عليك بأعيان الأوقات ، لئلا يمنعك التسويف من فعلها فيؤدى ذلك بك إلى تركها ، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة : أى ضربًا ونصيبًا من الاختيار . إذ لو ضيق عليك الوقت لكان ذلك فى غاية الحرج والاضطرار ، فالحمد لله على منته وسعة رحمته .

وقد قيل إن الله سبحانه يقول لعبده : ألم أخرجك من العدم إلى الوجود ، وأمدك بأمداد الفضل والجود ، جعلت لك نورًا فى بصرك لتدرك به أدلة قدرتى وعظيم آياتى ، وجعلت لك نورًا فى بصيرتك لتفهم به خطابى ، وتتقى بالطاعة عقابى ، وترجو ثوابى فوعدتك الثواب على الطاعة ، وأوعدتك العقاب على المخالفة ، ثم كلفتك من العمل ما تطيق ، ووسعت عليك فى الأوقات كل

ضيق ، فلو أنك قضيت ما أوجبت عليك فى أول عمرك فى آخره لقبلته منك ، فمن ذا الذى منعك من الامتثال ، ولم يكن بك عذر غير الغواية والضلال ؟ اهـ .

وقد قيل فى المثل : من طلب جاب ، ومن هاب خاب ، وانظر قرن الله الهداية بالمجاهدة . وأوجب سبحانه على نفسه ما لم يجب عليه ، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين :

(وَالَّذين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الهوَى أُرْشِدْتَ لِلْجَبَلِ ... وَالصِّدْقُ سَيْفٌ يُنِيلُ غَايَةَ الأَمَلِ
فَكُنْ أَخَا هِمَةٍ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا ... وَلَاتَكُنْ بِالتَّوانِي مُحْبَطَ العَمَلِ

وكان الربيع بن خيثم يردد هذه الآية ويبكى وهى قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالذِين آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالِحَاتِ)[1] الآية .

وكان يصيح : ليت شعرى من أى الفريقين أنت يانفسى ؟ وهذه الآية تسمى مبكية العابدين .

وقال سهل رضى الله عنه فى معنى هذه الآية : ليس أهل الموافقة كأهل المخالفة . أهل الموافقة : (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) وأهل المخالفة : فِي (عَذَابِ السَّعِيرِ) اهـ .

حكمة إيجاب الطاعة

ولما ذكر حكمة توقيت الطاعة ذكر حكمة إيجابها على عباده فقال :

[علم قلة نهوض العباد إلى معاملته ، فأوجب عليهم وجود طاعته ،

---

(١) الجاثيه : ٢١ .

فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل ، أوجب عليك وجود طاعته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته] .

قلت : هذه حكمة التشريع ، لكنه ما ذكر إلا حكمة أهل الظاهر .

وحاصلها : أن الحق سبحانه من حكمته لما علم من عباده قلة النهوض إلى معاملته لأنه قال :

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[1] وقال أيضًا : (وَقَلِيلٌ مَاهُمْ)[2] .

فلما علم ذلك أوجب عليهم طاعته ، وأوعدهم على تركها بالعقوبة ، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب ، ثم ذكر الشيخ حديثًا ورد فى شأن الأسارى إشارة إلى أن العبد لا اختيار له ، فهو أسير فى يد قدرة القدير ، والحديث مشهور وهو قوله عليه الصلاة والسلام :

« عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّة بِالسَّلاسِلِ » .

لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو إلى الله وإلى دخول حضرته فمن وافقه نجا ، ومن خالفه جعل له السلسلة فى عنقه وساقه إلى حضرة ربه ، ولفظ الحديث : « عَجِبَ اللهُ مِنَ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ » .

قال بعض العلماء : يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه ، لأنه بديع الشأن ، وهو أن الجنة التى أخبر الله بما فيها من النعيم المقيم ، والخلود فى العيش الرغد الدائم ، ومن حكم من سمع بها من ذوى العقل أن يسارع إليها ، ويبذل جهده فيها ؛ ويحتمل المكاره والمشقات لينالها ، وهؤلاء يفرون منها ويرغبون عنها حتى يقادوا إليها بالسلاسل ، كما يقاد إلى المكاره العظيمة التى تنفر منها الطباع اهـ .

ثم إن الحق سبحانه غنى عن الانتفاع بالمنافع ، فما أمرك بهذا ونهاك عن هذا إلا لما لك فيه من جلب المنافع ودفع المضار ، أوجب عليك وجود طاعته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته .

---

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) ص : ٢٤ .

قال بعض الحكماء : واعلم أن فى الطاعات تفاوتًا ودرجات ، وفى المخالفة كبائر ودركات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَراءوْنَ الْغُرَفَ مِنْ فوقِهِمْ كَمَا يَرَى أَهْلُ الْأَرْضِ الْكَوْكَبَ الدُّرِّىَّ فى أُفُقِ السَّماءِ ، قِيل يَارَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاء ؟ قَالَ : والّذِى نَفْسى بيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » .

التفاوت فى الطاعات

وقال آخر : الناس ثلاثة : عبد أطاع الله عبودية وشكرًا وامتثالا وقيامًا بحق الخدمة فزاده الوجوب شرفًا وعلو درجة ، وعبد أطاع الله تعظيمًا للموجوب ، فالوجوب فى حقه تنبيه وإظهار للحكمة ، وعبد أطاع الله خوفًا من عذابه ورجاء فى ثوابه ولولا ذلك ماعبده ، فالوجوب فى حقه لطيف به وفى الكل خير ، وشتان مابينهم اهـ .

قلت : والتحقيق إنما هما قسمان : قسم أطاع على التكليف ، وهم أهل التكثيف . وقسم أطاع على التعظيم ، وهم أهل التعليم والتعريف . أهل الحجاب أطاعوا خوفًا وطمعًا ، وأهل العيان أطاعوا حبًّا وشكرًا ، وهو مقام الأنبياء ، وخواص الأولياء :

قال عليه الصلاة والسلام : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » .

فالحكمة عند أهل الباطن فى وجوب الخدمة إنما هى إظهار لستر سر الربوبية التى هى فى مظاهر العبودية ، فالربوبية بلا عبودية نقص يلزم عليه إبطال حكمته ، والعبودية بلا ربوبية محال لايتصور وجوده .

مَنْ لَاوُجُودَ لِذَاتِهِ منْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ محَالِ

ولأجل هذا المعنى كان العارفون إذا تحققوا هذا السر ، وهو أن العبودية لاوجود لها من ذاتها ، وإنما حكمة وجودها صون سر الربوبية بإظهار أحكام العبودية ، وعرفوا ذلك حالا وذوقًا ، كانت عبادتهم شكرًا ، وكانوا فيها محمولين غير حاملين ، عملهم بالله لله ، فعبادة هؤلاء كثيرة عظيمة فى المعنى وإن

كانت قليلة فى الحس ولاتقل أبدًا ، إذ تصرفاتهم كلها عبادة ، نومهم عبادة ، وأكلهم عبادة ، ومشيهم عبادة ، وفى مثل هؤلاء ورد الحديث :

« نَوْمُ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ » .

وقال أيضا: «رِجَالٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى الْفُرُشِ الْمُمَهَّدةِ ، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الذَّاكِرُونَ الله كثِيرًا » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام ذكره المنذرى .

وقال أبو سليمان : قد يدرك العارف على فراشه مالا يدركه فى صلاته ، ولايستغرب العبد من نفسه بلوغ هذا المقام .

فإن فضل الله لاينال بسبب ، وقدرة الله صالحة لدرك كل مطلب ، كما أبان ذلك بقوله :

[من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية وكان الله على كل شىء مقتدرًا] .

قلت لاشك أن الحق تعالى لايعجزه شىء ، هو الغالب على أمره ، وقلوب عباده بيده ، يصرفها كيف شاء ، ويقلبها حيث شاء ، فمن كان منهمكًا فى الغفلة ، مستغرقًا فى بحار الشهوة ، فلا يستغرب أن ينقذه الله من غفلته ، وأن يخرجه من وجود شهوته : فإن ذلك قدح فى إيمانه . وكيف يستغرب ذلك وربنا تعالى يقول :

(وَكَانَ الله عَلَى كلِّ شَىْءٍ مُقْتَدِرًا)[1] وأنت من ذلك الشىء .

وقال تعالى فى حق العصاة : (يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)[2] .

وقال تعالى : (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ)[3] إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) الكهف : ٤٥ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

(٣) المائدة : ٣٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لَوْ أَذْنَبْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُم عَنَانَ السَّماء ثُمَّ تُبْتُمْ لتَابَ الله عَلَيْكُمْ » .

وليتذكر من تقدم قبله من أهل الغفلة والعصيان ، ثم صار من أهل المشاهدة والعيان كانوا لصوصًا فصاروا خصوصًا كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبى يعزى ، وكثير ممن يتعذر حصره . وقد ذكر القشيرى فى أول رسالته منهم رجالا ، قدمهم أولا تقوية لرجاء المذنبين .

وليذكر الرجل الذى قتل تسعًا وتسعين نفسًا ، ثم سأل راهبًا عن التوبة ، فقال له لاتوبة لك ، فكمل به المائة ، تم سأل عالمًا فدله على التوبة وأمره بالذهاب إلى قرية فيها قوم يعبدون الله ، فقصدهم فمات بالطريق ، فأخذته ملائكة الرحمة ، والحديث فى البخارى مطولا .

وكذلك الرجل الذى كان لصًّا فسأل عابدًا هل له من توبة ؟ فاستهزأ به وأخذ عرجونًا يابسًا وقال له : خذ هذا العرجون . فإذا اخضر فقد صحت توبتك ، فأخذه بالنية وجعل يعبد الله وينظر إليه فأصبح ذات يوم معسلجًا أخضر .

قلت : وقد أدركت أقوامًا كانوا مغرقين فى الغفلة وترك الصلاة ، لايعرفون من الدين المشهور قليلا ولاكثيرًا فضلا عن طريق الخصوص ، فانقلبوا وصاروا خصوصًا عارفين .

وقد أدركت أقوامًا كانوا منهمكين فى الذنوب مغرقين فى المعاصى وظلم العباد ، فصاروا من أعظم الصالحين .

وقد رأيت نصارى بثغر سبتة حضروا خلف حلقة الذكر ، فانجذبوا وتبعونا حتى أخرجنا الحد الذى بيننا وبينهم ، ولو وجدوا سبيلا لأسلموا سريعًا .

وقد كان بعض إخواننا يقول فى شأن نفسه تعجبًا من خروجه من غفلته : هذا مدفع النخّاس المدبر ، من عنده شىء فليخرجه ؟ فلقد رأيته مجذوبًا عاريًا رأسه حافيًا رجله ، فهو اليوم من خواص الأولياء .

والغالب إنما يتفق هذا لمن سقط على صحبة العارفين الذين عندهم الإكسير ، وهم موجودون فى كل أوان ، وهذا أمر شهير لايحتاج إلى دليل ومن

شك فليشاهد . فياعجبًا ممن ينكر ضوء الشمس بعد طلوعها ، ونور القمر بعد ظهوره ، ولكن كما قال صاحب البردة :

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ المـاء مِنْ سَقَمِ

(وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاَ)[1] .

وأعجب منه من ينكر وجود شيخ التربية ، ويقر بانقطاع أهل الخصوصية .

(فَإِنَّهَا لاَتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فى الصُّدُورِ)[2] .

أعنى تعمى عن طريق أهل الخصوص وتبصر طريق أهل العموم كحال الخفاش يبصر فى الظلمة ولايبصر فى النور ، فهو عند الناس معذرة لفقده ماعند الأقوياء من النور .

وقد يسلط الله على عبده الانهماك فى الشهوات ، ويحبسه فى سجن الغفلات ، ثم يمن عليه بالتوبة والتيقظ من الغفلة ، ويدخله مع أحيائه مداخل الحضرة ليعرف قدر ماأظهر الله عليه من المنة ، كما أبان ذلك بقوله :

[ربما وردت الظُّلَمَ عليك ليعرفك قدر ما منّ به عليك] .

قلت : لاشك أن نيل الشىء بعد الطلب ، ألذ وأعز من المساق بغير تعب ، والمحبة بعد القطيعة أحلى من المحبة بلا القطعية ، والصفاء بعد الجفاء أصفى من الصفاء بلا جفاء ، وفطام النفس عن مألوفاتها وعوائدها أشد معالجة من النفس السلسلة المنقادة من غير تعب ، فيكون الأجر أو القدر على قدر التعب ، فهذه حكمة تقديم ورود الغفلة والشهوة على العبد ، ثم ينقذه منها ليعلم قدر هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه . فربما أورد عليك أيها الإنسان الحق تعالى الظلم ، جمع الظلمة : وهى الأغيار والأكدار ، وحب الشهوات والعوائد فتغرق فى بحاره وتسجن فى سجون ظلماتها ، ثم ينقذك منها فى ساعة واحدة ، وذلك لتعرف بعد الفتح قدر مامن الله به عليك ، فتزداد محبة وشكرًا ، ويعظم السر عندك محلا

---

(١) النساء : ٨٨ .

(٢) الحج : ٤٦ .

وقدرًا ، فتعرف حقه وتصونه عمن لايستحقه ، ولأجل هذا جعل الله الجنة محفوفة بالمكاره ، ليعرف العباد بعد دخولها قدر النعمة التى منّ الله بها عليهم ، وكذلك جنة العارف محفوفة بالمكاره ، ليعرف العارف قدر السر الذى كشف به ، والخير الذى منحه الله إياه .

واعلم أن هذه الظُّلَم التى ترد على القلوب فتحجبها عن علام الغيوب ، هى ناشئة بحكمة الله من الدنيا والنفس والشيطان ، فمن زهد فى الدنيا وغاب عن نفسه وأطلق يده منها وذكر الله حتى احترق الشيطان وذاب دخل مع الأحباب ، وفتح له عن علم الغيوب الباب .

قال بعض الحكماء : واعلم أن الصانع البديع سبحانه لما خلق القلب ، جعله خزانة أسراره ، ومعدن أنواره ، وموضع نظره من عبده ، ولم يخلق الله فى الوجود أشرف منه ، ثم رمى على باب القلب أخس الأشياء وأقذرها ، لتقتضى حكمته اجتماع الأضداد التى لاقدرة لغيره على ذلك ، فطرح على باب القلب جيفة وكلبًا ينهش فيها وهما الدنيا والشيطان ، فمن أراد الدخول لخزانة سر الله لابد له من تغميض عينه عن هذه القذرة وإعراضه عن الكلب . لأنه لاسبيل له على من أعرض عنه وعن جيفته ، وكل من التفت إليها سلب النور الذى أراد الله به الدخول لبيت قلبه ، وكان له ذلك كالطلسم على الكنز منعه منه لامحالة اهـ .

وقيل : إن الدنيا بنت الشيطان ، وطالب الدنيا صهر إبليس ، والأب لاينفك عن بنته أبدًا مادامت البنت فى عصمة الصهر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِى الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِى الْأُخْرَى وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ ، قِيلَ يَارَسُول اللهِ أَىُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ الْأَغْنِيَاء ، يَعْنِى الْبُخَلَاء ، ثُمَّ قَالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : مَنْ عَظَّمَ غَنِيًّا لِأَجْلِ غِنَاهُ كَانَ عِنْد اللهِ كَعَابِدِ وَثَنٍ ، وَمَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ سَنَةٍ » اهـ .

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : ما أحبنى من أحب المال ، وما أحبنى من أحب الدنيا ، فإنه لايسع فى قلب واحد حبى وحبها أبدًا .

ياموسى ماخافنى من خاف الخلق ، وما توكل على من خاف فوات الرزق . وعزتى وجلالى ماتوكل على عبد إلا كفيته ، وبيدى مفاتيح الملك والملكوت . وما اعتصم بى عبد إلا أدخلته الجنة وكفيته كل مهمة . ومن اعتصم بغيرى قطعت عنه الأسباب من فوقه . وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالى كيف أهلكته .

ياموسى خمس كلمات ختمت لك بها التوراة ، إن عملت بهن نفعك العلم كله ، وإلا لم ينفعك شىء منه :

الأولى : كن واثقًا برزقى المضمون لك مادامت خزائنى مملوءة ، وخزائنى مملوءة لاتنفد أبدًا .

الثانية : لاتخافنّ ذا سلطان مادام سلطانى ، وسلطانى دائم لايزول أبدًا .

الثالثة : لاتر عيب غيرك مادام فيك عيب ، والعبد لايخلو من عيب أبدًا .

الرابعة : لاتدع محاربة الشيطان مادام روحك فى جسدك ، فإنه لايدع محاربتك أبدًا .

الخامسة : لاتأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة ، وفى الجنة أصاب آدم ماأصاب فلا تأمن مكرى أبدًا اهـ .

قلت : وهذا كله تشريع لغيره ، والأنبياء كلهم مطهرون معصومون ، وكل ماورد فيهم من التعليم والتربية فالمراد به غيرهم ، وبالله التوفيق .

متى يعرف قدر النعمة

ثم من منّ الله عليه فأخرجه من أسر نفسه ، وأطلقه من غفلته ، فلم يعرف هذه النعمة سلبها من ساعته ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها] .

قلت : هذا الذى ذكره الشيخ مجرب صحيح ، وذلك أن العبد قد تترادف عليه النعم والعوافى ، فلا يعرف قدرها ، ولاتعظم عنده كل التعظيم ، فإذا

سلبها ، وضرب بالبلاء والأوجاع والمصائب ، فحينئذ يعرف قدر العافية ، وكذلك الفقير يكون مصحوبًا بالحضور والفكرة والنظرة فلا يعظم عنده قدرها ، فإذا أصابته الغفلة ورجع إلى الحس وفقد قلبه عرف قدر ماكان عنده ، فإذا التجأ واضطر إلى الله رد إليه ماسلبه .

قيل إن الله تعالى يقول لجبريل : ياجبريل انسخ حلاوة محبتى من قلب عبدى أختبره فينسخ جبريل حلاوة المحبة من قلب ذلك العبد ، فإذا هو اضطرب وتضرع والتجأ وبكى ، يقول الله تعالى لجبريل رد عليه حلاوة محبتى فقد وجدته صادقًا ، وإذا نسخ حلاوة المحبة من قلب العبد فلم يبتهل ولم يتضرع ، لم يرد إليه شيئًا ، وسلبه تلك الحلاوة ، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء .

ويستعين العبد على معرفة قدر النعم ، بالتفكر فيها ، وبالتفكر فى حال نفسه قبل وجودها ، فينظر إذا كان غنيًّا إلى حال فقره المتقدم حسًّا أو معنى ، وينظر إذا كان صحيحًا إلى حال مرضه ، وينظر إذا كان طائعًا فى حال عصيانه وينظر إذا كان ذاكرًا إلى وقت غفلته ، وينظر إذا كان عالمًا إلى وقت جهله ، وينظر إذا كان مصاحبًا لشيخ عارف إلى وقت ضلالته ، وينظر إذا كان عارفًا إلى وقت جهالته ، وهكذا كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها الذى كان موجودًا فيه قبل ذلك ، فلا شك أنه يعرف قدرها فيشكرها فتدوم عليه .

وأما من لم يتفكر فى حال النعم فلا يعرف قدرها ، فيغفل عن شكرها ، فيسلب منها وهو لايشعر .

قال بعضهم : شكر الله تعالى باللسان هو الاعتراف بالنعمة على وجه الخضوع . وشكر الله باليد : هو الانصاف بالخدمة على وجه الإخلاص . وشكر الله بالقلب : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وقال الجنيد رضى الله عنه : ألا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وألا تعصى الله بنعمته اهـ .

فإن قلت : كيف أقوم بشكر النعم وهى لاتحصى .

قلت : القيام بها هو الاعتراف بها للمنعم وحده ، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ بقوله :

شكر النعم

[لاتدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك] .

قلت : قد يتفكر الإنسان فى نفسه وما به من النعم فيجد نفسه مغموسًا فى النعم حسية ومعنوية ، فينظر فى نعمة البصر ، فى نعمة السمع ، فى نعمة الشم ، فى نعمة الذوق ، فى نعمة الكلام ، فى نعمة العقل ، فى نعمة اليدين ، فى نعمة الرجلين ، فى نعمة الصحة والعافية ، فى نعمة الكفاية ، فى نعمة الأهل ، فى نعمة الأولاد ، ثم فى نعمة الهداية إلى الإسلام ، ثم فى نعمة الإيمان ، ثم فى نعمة الطاعة ، ثم فى نعمة العلم ، ثم فى نعمة من يستعين به من الإخوان ، ثم فى النعمة الكبرى ، نعمة الشيخ فيما أعد الله له بعد الموت الذى لانهاية له ، فإذا وجد نفسه مغمورًا فى النعم فلا يدهش منها ويتحقر فى نفسه عن القيام بشكرها ، فإن الاعتراف بها ومعرفتها والإقرار بها أنها من الله بلا واسطة هو شكرها ، وقوله : (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين) كاف فى شكر اللسان ، ألا ترى أن الجنة هى من أعظم النعم ، فكان شكر أهل الجنة فيها : (الحمد لله رب العالمين) قال تعالى :

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالمِينَ)[1] .

وقد جاء فى بعض الأخبار : أن داود عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة من نعمك ، ونعمتك توجب على الشكر ، والشكر نعمة يوجب الشكر أيضًا ، وهكذا .

فأوحى الله إليه : إذا عرفت أن النعم كلها منى ، فقد شكرتنى ، وقد رضيت منك بذلك .

وفى رواية أخرى : قال داود عليه السلام : إلهى إن ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئها ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود

---

(١) يونس : ١٠ .

إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمنى .

وأنشد بعضهم فى هذا المعنى :

إِذَا كَـانَ شُكْـرُ الله لِلْعَبْـدِ نِعْمَـةً
عَلَيْهَـا مِنَ اللهِ لَـهُ يَجِبُ الشُّكْـرُ
فَكَيْفَ لَـهُ بِـالشُّكْـرِ والشُّكْـرُ نِعْمَـةٌ
وَلَـوْ وَالَتِ الْأَحْقَابُ وَاتَّصَـلَ الْعُمْـرُ

وقال آخر :

لَـكَ الْحَمْدُ مَـوْلَانَا عَـلَى كُلِّ نِعْمَـةٍ
وَمِنْ جُمْلَةِ النَّعْـمَاءِ قَولِى لَـكَ الحَمْـدُ
فَـلَا حَمْـدَ إِلَّا أَنْ تَمُـنَّ بِنِعْـمَـةٍ
فَسُبْحَانَك لَا يَقْوى عَلى حَمْدِكَ الْعَبْدُ

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إليه : إنى بأرض ولقد كثرت فيها النعم ، ولقد أشفقت على قلبى ضعف الشكر ، فكتب إليه عمر : إنى كنت أراك أعلم بالله مما أراك ، إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل قال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيمانَ عِلْمًا وَقَالَا الحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤمِنِينَ)[1] وقال تعالى : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) ثم قال : (وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ)[2]

وأى نعمة أعظم من دخول الجنة ؟ اهـ .

ولما كان أعظم النعم وأشرفها هو دواء القلب ، وشفاؤه من مرض الهوى

---

(١) النمل : ١٥ .

(٢) الزمر : ٧٣ ، ٧٤ .

الذى قيده فى سجن الغفلة ، وعرضه لغضب المولى ، نبه الشيخ على ذلك ليعرف العبد قدر هذه النعمة إذا كان شفاء الله ، أو يطلب من الله إخراجه من تلك النعمة إذا لم يكن شفاه الله فقال :

[تمكُّن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال] .

قلت : حلاوة الهوى على قسمين : هوى النفس ، وهو القلب :

فهوى النفس يرجع لشهواتها الجسمانية ،. كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن .

وهوى القلب : هو شهواته المعنوية ، كحب الجاه والرياسة ، والعز ، والمدح والخصوصية والكرامات ، وحلاوة الطاعات الحسية كمقام العباد والزهاد ، وحلاوة علم الحروف والرسوم ، فأما علاج هوى النفس فأمر قريب . يمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك ، والزهد وصحبة الأخيار . وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب ، وهو الداء العضال الذي أعضل الأطباء ، أى أعجزهم وحبسهم عن علاجه ، فلا يزيده الدواء إلا تمكنًا وإنما يخرجه وارد إلهى بعناية سابقة بواسطة أو بغير واسطة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لايخرج الشهوة من القلب ، إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق] .

قلت : الشهوة إذا تمكنت من القلب صعب علاجها ، فلا يمكن خروجها فى العادة إلا بوارد قهرى جلالى أو جمالى ، فالوارد الجلالى : هو خوف مزعج ، فيزعجك عن شهوتك ، ويخرجك عن وطنك وأهلك ، والوارد الجمالى : هو شوق مقلق ، فيقلقك عن مراداتك وحظوظك ، فينسيك نفسك ويؤنسك بربك ، ولأجل صعوبة هذا المرض كان أشد حجابًا عن الله العلماء ، ثم الزهاد ، لأن هذه الشهوة خفية ، لأن صاحبها : (أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ)[1] الآية .

(وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)[2] .

أى أضلهم عن طريق الخصوص ، وبقوا فى طريق العموم .

أما العلماء الظاهريون فهم يعتقودن أنه لافضيلة فوق علمهم ؛ حتى إنى سمعت من بعضهم يقول : إن مقام الإحسان هو مقامهم الذى هم فيه من العمل

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

(٢) الكهف : ١٠٤ .

بظاهر الكتاب والسنة ولا مقام فوق ذلك ، فكيف يمكن إخراج هذا إلا بعناية سابقة .

وأما العباد والزهاد : فهم يقولون أيضًا : هذه غاية المحبة والطاعة ، ويزيدهم بعدًا مايرونه من الكرامات الحسية ، فيزدادون حجابًا وتمكنًا فى حالهم .

وأما العوام وأهل الغفلة : فهم أقرب الناس إلى الانقياد والنفوذ إلى ربهم .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال :

« أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ » . [البله : جمع أبله : وهو الغافل عن الشر ، السليم الصدر] .

ومما يدلك أن الشهوة القلبية أصعب من الشهوة النفسية قصة آدم والشيطان ، فإن آدم عليه السلام كانت شهوته فى بطنه فتداركه الله بعناية ، والشيطان كانت شهوته فى قلبه :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)[1] فطرد إلى يوم القيامة .

ثم اعلم أن الخوف على قسمين : خوف العوام ، وخوف الخواص . خوف العوام من العقاب والعذاب ، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب .

والشوق أيضًا على قسمين : شوق العوام للحور والقصور ، وشوق الخواص للشهود والحضور ، شوق العوام لنعيم الأشباح ، وشوق الخواص لنعيم الأرواح ، شوق العوام ناشئ عن قوله تعالى :

(وَعَدَ الله المؤمِنِينَ وَ المُؤمِنَاتِ جَنّاتٍ تَجْرى مِنْ تحتها الْأَنْهارُ خَالدينَ فِيها وَمَساكِن طَيِّبَةً فى جَنَّات عَدْنٍ) . وشوق الخواص ناشئ عن قوله تعالى : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[2] .

جعلنا الله من أعظمهم قدرًا وأكملهم محلا وفضلا آمين بمنه وكرمه .

---

(١) ص : ٧٦ .

(٢) التوبة : ٧٢ .

الإخلاص وسببه

فإذا دخل الخوف أو الشوق إلى القلب أخرج كل مافيه من الأغيار ؛ وملئ بالمعارف والأنوار ، فحينئذ تخلص الأعمال ، وتزكو الأحوال ، ويقبل عليه ذو العظمة والجلال ، كما أبان ذلك الشيخ بقوله :

[كما لايحب العمل المشترك لايحب القلب المشترك . العمل المشترك لايقبله ، والقلب المشترك لايقبل عليه] .

قلت : العمل المشترك : هو الذى تصحبه الحظوظ النفسانية دنيوية أو أخروية ، والقلب المشترك : هو الذى يكون فيه حب السِّوَى ، فالعمل الذى تصحبه الحظوظ مدخول ، والمدخول غير مقبول ، يقول الله تعالى :

« أَنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عن الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِل عَمَلاً أشْرَكَ فِيه مَعِى غَيْرى تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ » .

والقلب الذى فيه حب شىء من السوى ملطخ بالهوى لايليق لحضرة المولى . قال تعالى : (وَطَهِّر بَيْتِيَ لِلطَّائِفِين)[1] .

وقيل ياداود طهر لى بيتًا أسكنه ، ولله در الششترى حيث يقول :

لِي حَبِيبٌ إنما هُوَ غَيُورْ يَظَلُّ فى الْقَلْبِ كَطَيْرٍ حَذُورْ
إذَا رَأَى شَيْئا امْتَنَع أَنْ يَزُورْ

فمن حصن أعماله بالإخلاص استحق القبول وكان من الخواص ، ومن حصن قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأنوار ، ونبعت منه المعارف والأسرار .

واعلم أن العمل المشترك هو الذى يدخله ثلاث علل : إما رياء ، أو عجب ، أو طلب عوض .

أما الرياء : فهو الشرك الأصغر وقد تقدم الحديث : « من عمل عملا

---

(١) الحج : ٢٦ .

أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » . وفى حديث مسلم :

« ثَلَاثَةٌ أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمْ جَهَنَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَذَكَرَ الْقَارِئَ لِغَيرِ اللهِ ، وَالشُّجَاعَ الذِى يُقَاتِلُ لِغَيْرِ اللهِ ، وَالْغَنِىَّ الَّذِى يَتَصَدَّقُ لِغَيْرِ اللهِ » .

وأما العجب : فهو رؤية النفس وإسناد العمل إليها ، ورؤية المزية لها على الناس قال تعالى : (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)[1] .

قيل معناه : إذا عملت عملا فلا تقل عملت ولا تظهره عند من يعظمك لأجل عمله بذلك ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » .

قال زيد بن أسلم : معنى لاتزكوا أنفسكم لاتعتقدوا أنها بارة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذُّنُوبِ الْعُجْبَ » .

قال بعض السلف : لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلى من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا . وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئًا ؟ قالت : إذا ظن أنه محسن .

قيل والمعجب أعمى عن آفات نفسه وعمله ، والعمل إذا لم يتفقد ضاع ، وإنما يتفقد عمله من غلب عليه خوف الله وخوف ذنوبه ، ولايريد الثناء على نفسه وحمدها وتزكيتها وربما أعجب برأيه وعقله ، فيستنكف عن سؤال غيره ولايسمع نصح ناصح لنظره من سواه بنظر الاستحقار ، نسأل الله السلامة والعافية .

---

(١) النجم : ٣٢ .

وأما طلب العوض والجزاء فقد تقذم مرارًا الزجر عنه ، وإنك إن طالبته بالجزاء طالبك بسر الإخلاص ، ويكفى المريب وجدان السلامة ، فكل عمل فيه بعض هذه الآفات فإن الله لايقبله قبول الخواص .

وأما القلب المشترك : الذى يدخله ثلاث أيضًا : حب الدنيا أو حب الخصوصية أو النعم الأخروية ، وكلها قادحة فى الإخلاص مخرجه عن درجة التوحيد الخاص ، وبالله التوفيق . هذا آخر الباب الحادى والعشرين .

وحاصلها : ذكر ميزان الأعمال والأحوال الصحيحة والسقيمة .

وحاصل هذا الميزان كل مايثقل على النفس فهو صحيح ، وكل مايخف عليها فهو سقيم ، ومن جملة مايثقل عليها القيام بالفرض الواجب دون النوافل ، فإنها تخف عليها ، فلما علم الحق سبحانه ذلك منها قيد الفرائض بأوقات معلومة كى لايمنعها التسويف ، لأن جل النفوس يقل نهوضها إلى حضرة القدوس ، وليس للحق سبحانه غرض فيما فرض ، وإنما ساقهم إلى جنته بسلاسل امتحانه ، فمن غلبته نفسه على النهوض إلى الطاعة ، وأسرته شهوته عن اللحوق بالسباق ، فلا يستغرب أن ينقذه الله منها ، فإن قدرة القادر كلمح البصر أو أقرب ، وربما تكون تلك الشهوة أو الغفلة فى حقك نعمة ، وذلك لتعرف منة الله عليك حين ينقذك منها ، فإن كثيرًا ممن أنعم الله عليهم لم يعرفوا قدرها فسلبوا منها ، فإذا أنعم عليك بإنقاذك من نفسك وإلحاقك بخواص جنسك فانغمست فى النعم ، فلا تندهش عن شكرها ، فإقرارك بالمنعم قيام بشكرها .

فإذا رأيت من حبسته نفسه وتمكن داء الهوى من قلبه فاعلم أن ذاك هو الداء العضال فلا يخرجه منه إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ، فإذا أزعجه الخوف أو الشوق تفرغ قلبه وخلص عمله فيقبل الله عليه ، فإذا أقبل عليه ملأه بالأنوار ، فمنها مايصل إلى سويداء قلبه ، ومنها مايقف على ظاهر قلبه ، كما أبان ذلك بقوله فى أول الباب الثانى والعشرين رضى الله عنه :